مجلة علوم التربية

دورية مغربية نصف سنوية

- اكتساب قيم المواطنة والتسامح.
- دينامية الجماعة وتطبيقاتها.
- حاجة الكفايات إلى التداول والاستعمال.
- اللغة العربية وتدريس العلوم.
- التربية البدنية والرياضة المدرسية.
- التواصل والحجاج (أية علاقة؟).
- علم النفس المعرفي ما بعد بياجه.
- المكتبة المدرسية.
- التسرب المدرسي.

العدد الرابع والثلاثون- يونيو 2007

المكتبة المدرسية

مقاربة أولية في تحديد بعدها الوظيفي ومقتضيات التفعيل

• محمد باداج*

المدخل:

لا بد من التأكيد، بداية، على أن تربية الأفراد على قيم المواطنة ليست مسألة توعية فحسب، وإنما هي أيضا مسألة بناء إنسان قادر على مواكبة المستجدات المعرفية، إنسان يعرف أن تكوينه العلمي والمعرفي لا ينتهيان بالحصول على شهادة عليا و/ أو عمل. هكذا يجد كل مجتمع نفسه أمام ضرورة وضع استراتيجية تهدف إلى العمل على بناء إنسان واع بأن مسألة التكوين، والتكوين المستمر، مسألة ترتكز أيضا على الاستقلال الذاتي، والمبادرة الفردية، والتعلم الذاتي.

وتنصب هذه المقاربة، في إطار التفكير في الأدوار التي يمكن أن تقوم بها المكتبة المدرسية من أجل المساهمة في خلق "مجتمع العلم والمعرفة". وبعبارة أخرى، إن هذه المقاربة ستحاول أن تؤسس للوعي بأهمية الدور الوظيفي الذي يمكن أن تقوم به المكتبة المدرسية في إطار المنظومة التربوية، وبالتالي إبراز أهمية المسؤولية المباشرة الملقاة على عاتقها.

1. البعد الوظيفي للمكتبة المدرسة

كانت وظيفة المكتبة المدرسية ببلادنا تنحصر – إلى عهد قريب – في القيام بأدوار يمكن اعتبارها اجتماعية بالدرجة الأولى. حيث كانت وظيفتها الأساسية، تتحدد في إعارة الكتب المدرسية مقابل كفالة caution قد يعفى منها التلامذة المعوزون. لذا كان المسؤولون عن المكتبة[1] سابقا، يستعملون مصطلح "الخزانة الترفيهية" للإشارة إلى الاحتياط الذي قد تتوفر عليه بعض المكتبات المدرسية (المحظوظة) من كتب وإصدارات لا ترتبط عضويا بالمقررات والمناهج...

* أستاذ الفلسفة / أكادير

وبما أن المنظومة التربوية، اليوم، تتجـه نحو بناء إنسان منفتح على العلم والمعرفة؛ وجب الإدراك أن المعرفة ليست مجرد غاية في ذاتها لأنها يمكن أن تتحول إلى وسيلة. كمـا أن المعرفة والعلم في تنام وتجدد مستمرين، لهـذا تتجه التربية المعاصرة نحو اعتبار المكتبة المدرسة طرفا مباشرا وإيجابيا في المنظومة التربوية.

بل إن التأمل في طبيعة القصدية المحددة للمكتبة المدرسية[2]، تجعلنا ندرك بأن التربية المعاصرة تسعى إلى أن تجعل منها قطبا رئيسيا من أقطاب العملية التربوية ـ التعلمية.

1.1 -المعلومات حق للتلميذ

إن التربية المعاصرة أصبحت لا تعتبر الولوج إلى المعرفة ترفا فكريا بل حقا للتلاميذ[3] على المجتمع أن يمكنهم منه: فالتلاميذ، سيواجهون لا محالة مستقبلا يزخر بالمعلومات ولن يتمكنوا من ذلك إلا إذا تم تأهيلهم للتعلم مدى الحياة، وإكسابهم كفايات تسمح لهم باتخاذ القرارات بشكل انفرادي ومستقل. ومن هذا يتأكد أن المعلومات أصبحت عنصرا حيويا élément vital[4]، فهي وحدها تستطيع إذكاء الفكر النقدي لدى التلاميذ وبالتالي إنماء العديد من الكفايات الذاتية، وترسيخ القدرة على المبـادرة الفردية. وبمـا أن المعلومات، لا تكف عن التنامي والتجدد، فإن الأمر يحتم أن تمنح لكل تلميذ الفرصة للاستفادة من مصادر متنوعة من المعلومات (مكتوبة، إلكترونية، أو غيرها) من أجل استكمال تعلمه وتكوينه، مع منحه الحرية الكاملة لاختيار الوثائق التي يراها ملائمة[5].

2.1 -رسالة المكتبة المدرسية

يتبين مما تقدم، أن التربية المعاصرة أصبحت تنظر إلى المكتبة المدرسية كفضاء ذي رسالة mission محددة عليه أن ينجح في أدائها، وله غايات ومقاصد لا بد أن يرنو إلى الوصول إليها. وفي هذا الصدد، يعمد "بيان اليونسكو حول المكتبة المدرسية"[6] إلى أن يحدد تلك الرسـالة المتميزة من خلال تأطيرها داخل ثلاثة مستويات أساسية هي:

مستوى المعاملة: ويتمثل بالخصوص في معاملة التلاميذ وفق مرجعيات حقوق الإنسان. حيث يشترط أن يعـاملوا انطلاقا من مبدأ المسـاواة (أي دون اعتبـارات أو معايير إتنية، دينية، أيديولوجية أو اجتماعية... إلخ)، سواء على مستوى الخدمـات أو الحصول على الإصدارات والوثائق المطلوبة.

◆ مستوى الخدمات: ويتمثل في الدعوة إلى أن تعمل المكتبة المدرسية على توفير كل ما من شأنه أن يخدم عمليات التعلم من وثائق، وكتب، وإصدارات، بل وضمان توفر المعدات والأجهزة التي ستمكن المتعلم من الاستثمار الجيد للمعلومات مهما كانت طبيعتها أو دعامتها support[7].

◆ مستوى المساعدة: ويتجلى في دعوة المسؤولين على المكتبة المدرسية أن يكونوا رهن إشارة التلميذ من أجل تقديم المساعدة الضرورية سواء للوصول إلى المعلومة المطلوبة أو لحسن تدبيرها واستغلالها.

3.1. مقاصد المكتبة المدرسية

تحدد التربية المعاصرة مقاصد المكتبة المدرسية في القيام بمجموعة من الوظائف تعتبر ضرورية لترسيخ كفايات أولية لدى التلميذ، ترتبط بالخصوص بتطوير عمليات التعليم والتعلم والتكوين، وتحدد في إكساب التلميذ عادتي القراءة والكتابة، لتلازماه مدى الحياة. ومن ثمة، يتبين أن باراديغم paradigme التربية المعاصرة، يتمثل في أن تصبح المكتبة المدرسية طرفا أساسيا وفاعلا في العملية التربوية ـ التعليمية. إن الوعي بهذه الحقيقة، يؤكد أن المكتبة المدرسية لم تعد مجرد "أكسيسوار" في العملية التربوية ـ التعليمية: فمن خلال تدخلها بشكل مباشر في عملية بناء مستقبل التلميذ، أصبحت عنصرا كامل العضوية في عملية التنشئة الاجتماعية، وطرفا فاعلا في خدمة أهداف المدرسة والمجتمع. بل يكفي للمكتبة أن تكون في خدمة المدرسة حتى تكون في خدمة المجتمع على اعتبار أن المدرسة من المؤسسات التي يعول عليها كل مجتمع من أجل الدمج السوسيواقتصادي لموارده البشرية.

وفي إطار هذا المنطق، فالمكتبة المدرسية قادرة على أن تعمل على تفتق الطاقات الإبداعية لدى التلاميذ وتساعدهم على امتلاك وتطوير كفايات الفهم والتعلم، والتعبير (المنطقي، الحجاجي، الخيالي، الوجداني...).

كما أن التأمل في المقاصد التي تحددها التربية المعاصرة للمكتبة المدرسية، يبين أن هذه الأخيرة تقع في الواجهة فيما يخص تربية الأطفال على المواطنة، والمساهمة الفعلية في البناء الديموقراطي للمجتمع[8]: فعندما تضع المكتبة المدرسية التلميذ أمام مصادر متنوعة للمعلومات، تحتوي على أفكار متغايرة، وتنطلق من مرجعيات مختلفة؛ تجعله – بذلك ـ منفتحا على معلومات تتسم بالتعدد والاختلاف. مما يؤدي به، من جهة، إلى توسيع دائرة معارفه؛ ومن جهة أخرى، إلى امتلاك مجموعة من الكفايات الفردية المتمثلة في الروح النقدية، والقدرة على التواصل مع الغير، وموقعة الخصوصيات المحلية في مكانها الصحيح. علاوة على ذلك، يعد حرص المكتبة المدرسية على تمكين التلاميذ من الاستفادة من مصادر متنوعة للمعلومات ضمانا للانفتاح على الثقافة العالمية وتمثل جوانبها الإيجابية. إن هذه المهمة ليست حكرا على المكتبة المدرسية وحدها، لذا فإنها مدعوة إلى البحث عن سبل للتعاون مع الفاعلين المتدخلين (بطرق مباشرة أو غير مباشرة) في العمل التربوي، وبالأخص التنسيق مع مختلف مراكز التوثيق والإعلام (les CDI)، التي توجد في محيطها. وفي نفس المسار الفكري، يتضح أن على المكتبة المدرسية أن تنجح في تفعيل علاقات من التشارك مع المدرسين. لذلك نجد "بيان اليونسكو" يؤكد أن هناك علاقة اطرادية بين تعاون المدرسين والمشرفين على المكتبات: فبقدر ما يتوطد ذلك التعاون؛ بقدر ما يحدث تحول نوعي على مستوى التعلم والتكوين. بل يبدو أن هناك تجارب بينت أنه كلما نجحت هذه العلاقة إلا ولوحظ تقدم ملموس على مستوى المردود الدراسي[9].

2. تفعيل المكتبة المدرسية

لابد من الاعتراف بأن المكتبة المدرسية ليست مؤسسة قائمة الذات، بحكم وجودها تحت وصاية المؤسسة التربوية التابعة لها؛ الأمر الذي يجعلها تشكو من نقص في الموارد المالية ومن قلة التجهيزات. وبما أن الوعي بالمسألة قائم، فإن مقتضيات التفعيل التي ستثار – داخل هذه المقاربة – تأخذ بعين الاعتبار هذا المعطى. إنها في واقع الأمر مجرد شروط دنيا قياسا بما يتوقع من المكتبة المدرسية أن تتوفر عليه من موارد مادية وبشرية.

1.2. تدبير المكتبة المدرسية

إن تدبير المكتبات يتأسس على وضع استراتيجية على المدى المتوسط والبعيد، شرط أن تتسم هذه الاستراتيجية بالمرونة اللازمة حتى تكون قابلة للتكييف مع وضعيات جديدة أو محتملة. حيث أن الوعي بالبعد الوظيفي للمكتبة المدرسية يفيد عدم قابليتها للاشتغال وفق "منطق الدكان" الذي يفتح ليترقب زبناء محتملين، لأن الاستقطاب يعتبر من القواعد الأساسية التي يجب أن تتأسس عليها وظيفة كل مكتبة تحترم نفسها.

إن المكتبة المعاصرة – اليوم – أصبحت تحتكم إلى نفس الضوابط والشروط التي تحتكم إليها أية مؤسسة أو منظمة organisation يكون هدفها ترويج المنتوج الذي توفره، وفق منطق قريب جدا من "دراسة السوق" Marketing. لذا لابد أن تعمل المكتبة المدرسية على الاحتفاظ ب"مرتاديها النشيطين"، واستباق حاجاتهم، واستقطاب "المرتادين السلبيين"[10].

2.2. الاحتكام إلى ضوابط ونظم التصنيف والفهرسة

إن تفعيل المكتبة المدرسية، يتأسس، كذلك، على الوعي بأن ترتيب الوثائق وتصنيفها يخضع لضوابط normes ومعايير متعارف عليها دوليا، من الضروري الاستئناس بقواعدها، ولم لا الإحاطة بها ؟ ! فعندما لا تعمل المكتبة المدرسية وفق "نظام الولوج الحر" accès libre إلى الوثائق، يتحتم عليها أن تضع رهن إشارة المستعملين، مصدرا للمعلومات يحترم الحد الأدنى من قواعد التبويب والفهرسة catalogage[11]. كما يمكن للمكتبة المدرسية أن تكيف بعض التصنيفات المعمول بها وفق متوسط سن التلاميذ وذلك ما يتم العمل به خصوصا بالنسبة للتصنيف العشري لديوي Classification Décimale de Dewey .

علما بأن إخضاع وثائق المكتبة المدرسية لضوابط ومعايير التوثيق، يؤدي إلى تنمية فرص الاستقلال الذاتي لدى التلاميذ بحيث لا يجبرون مطلقا على طلب مساعدة الغير، إضافة إلى كونها طريقة غير مباشرة لتأهيلهم إلى البحث العلمي.

3.2. بناء "التلميذ الباحث"

إن ما تقدم يحتم التأكيد على ضرورة إخضاع محتويات المكتبة المدرسية إلى آليات تحليل الوثائق analyse

documentaire لما في ذلك من اعتماد طريقة علمية وموضوعية في الوصف والتعبير عن المضمون وفق "فهرس وثائقي" Thésaurus، وبالتالي اعتماد "مصطلحات واصفة" termes descripteurs متعارف عليها عالميا[12]. ومن هذا المنطلق يتبين أنه يقع على عاتق المكتبة المدرسية أن تدرب التلميذ على المراحل المنهجية الضرورية للوصول إلى المعلومات[13]. ومن أجل ذلك، يجب على المكتبة المدرسية أن تؤسس تصوراتها في التعامل مع التلاميذ على استراتيجية قصدية تسعى إلى ترسيخ كفايات أساسية قابلة للحصر فيما يلي:

- أن يستطيع التلميذ إقامة أبحاثه بناء على خطط محددة، بعيدا عن الاحتكام إلى محاسن الصدف.
- أن يستطيع التلميذ توجيه البحث انطلاقا من مشكلات مطروحة.
- أن يتعود التلميذ الاعتماد على النفس.
- أن يستطيع التلميذ إقامة علاقات تعاون وتشارك تجعله يقبل اقتسام الوثائق والمعلومات مع الغير.

إن تكوين "التلميذ الباحث" يعتبر في الواقع غاية مثلى ومكسبا حقيقيا... وعليه، يجب ألا ينحصر تأهيل التلميذ في تعلم الكيفية الناجعة للوصول إلى المعلومات فحسب، لأنه يجب أن يمتد إلى اكتساب كفايات التحليل، والنقد، وتمحيص المعلومات والمفاضلة بينها. حيث يفترض في التلميذ ألا ينتقي المعلومات وفق منطق الأنسب فقط، لأن عليه أن يتعلم، أيضا، ألا يختار إلا الأرجح والموثوق منه: ففي ذلك ضمان لمستقبله العلمي، وكفاءته المهنية، وضمان لأهلية المؤسسات التي ستشغله، وحماية للمجتمع من ترويج الأراجيف والتصورات الظنية.

4.2. تأهيل المدرسين

إذا انطلقنا من افتراض حتمي، يتمثل في أن معظم المدرسين يكلفون التلاميذ القيام ببحوث في مجالات متنوعة، تحتمها ظروف تعليمية محددة؛ يجب اعتبار المسألة فرصة لتزويد التلاميذ بأساسيات البحث العلمي، وبالتالي اعتبار ذلك نوعا من الجسور الممكنة (والضرورية) التي يجب مدها بين التعليمين الثانوي والجامعي.

وذلك ما يترتب عنه الإدراك بأن التوجهات الحالية للتربية المعاصرة تحتم أن يمتلك المدرس "كفايات البحث على الانترنيت": فبقدر ما أصبح الانترنيت من الوسائل الضرورية للبحث العلمي، نظرا لما يضمنه من غزارة المعلومات، وسرعة الوصول إليها، وإمكانية الحصول عليها في زمنها الحقيقي؛ بقدر ما يحتوي على معلومات قابلة لكي تكون موضوع نقد وتمحيص، نظرا لسهولة النشر والبث اللذين يتيحهما. ومن الإيجابيات الملموسة، حاليا، حث المدرسين على امتلاك معرفة لا بأس بها باستثمار المنتوج المتعددة الوسائط وبعث القدرة على إنتاجه، والتجديد الديداكتيكي من خلاله.

إن ذلك ما يشجع على القول بأنه يتحتم على التربية المعاصرة أن تسعى (من جهتها) إلى أن يمتد التكوين الأساسي والتكوين المستمر للمدرسين والأطر التربوية إلى امتلاك حد أدنى من ثقافة الإعلام والتوثيق.

خاتمة

إن المجتمعات المعاصرة تدرك جيدا أن للأمية تصنيفات متنوعة غير الجهل بمبادئ القراءة والكتابة، وتدرك أيضا أن الريادة تتوقف على التسابق نحو العلم والمعرفة، واستباق آثارهما. هكذا، نجد التربية المعاصرة تستلهم من هذا التصور العام، الأدوار التي يتوقع من المكتبات العمومية والمدرسية أن تضطلع بها من أجل التأسيس لـ"مجتمع القراءة" و"مجتمع العلم والمعرفة". كما أن التربية المعاصرة تؤسس فلسفتها على ترسيخ عادة القراءة والبحث العلمي اللذين يعتبران من أهم لبنات بناء الإنسان المعاصر وتربيته على قيم المواطنة... وإذا كانت التربية المعاصرة تلح على ضرورة إمداد المكتبات المدرسية بالموارد المادية الضرورية، فإنها تلح أيضا على كفاءة المسؤولين القائمين عليها.

الهوامش :

(1) إن المصطلح الرسمي الموظف في "قطاع التربية الوطنية" ببلادنا هو مصطلح "قيم عن الخزانة" كبديل لمصطلح bibliothécaire، وقد استخدمنا في هذه المقاربة مصطلح "مسؤول عن المكتبة" responsable de bibliothèque لأنه الأكثر تداولا. علما بأن مصطلح "مكتبة" نفسه يخلق إشكالا في اللغة العربية، لأنه يستعمل، في الوقت نفسه، للإشارة إلى المكتبة المتخصصة في بيع الكتب librairie، والمكتبة التي يرتادها الناس للقراءة أو استعارة الكتب bibliothèque والتي يفضل البعض أن يصطلح عليها ب"خزانة الكتب"... ونحن نستعمل مصطلح "المكتبة المدرسية" تجاوزا، على اعتبار أنه المصطلح الأكثر استعمالا في "الثقافة المدرسية".

(2) Manifeste de l'UNESCO de la bibliothèque scolaire, [ce Manifeste est établi en coopération avec la Fédération internationale des associations de bibliothécaires et des bibliothèques (IFLA)-Section des bibliothèques scolaires et des centres de documentation.] Août 1998.

Source : http://www.ifla.org/VII/s11/pubs/mani-f.htm

(3) Charte des droits de l'élève à l'ère de l'information, Association for Teacher-librarianship in Canada (ATLC), 1995 .

Cette charte a été approuvé le 10 septembre 1995 par le Conseil d'Administration de l'Association for Teacher Librarianship in Canada . Elle est disponible, en français ou en anglais. Pour information sur les commandes, écrire à l'adresse suivante :

Association for Teacher Librarianship in Canada (ATLC) 782, Warwick Street, Woodstock (Ontario) N4S 4R1 Canada

Source : http://www2.ac-lille.fr/giraux_sannier/Mlivre2/formation.htm

(4) idem

(5) ibidem

(6) Manifeste de l'UNESCO de la bibliothèque scolaire, op. cit.

(7) نقصد بالدعامة le support كل آلية أو أداة أو جهاز يساعد على إرسال أو استقبال معلومة أو المحافظة عليها.

حيث أن مفهوم "الوثيقة" توسع في ثقافة الإعلام والتوثيق بحيث أصبح يمتد ليشمل (علاوة على المطبوعات مثلا) الأقراص المرنة والمدمجة، والأشرطة الصوتية والأفلام، والصور الفوتوغرافية والخرائط.. إلخ.

(8) Manifeste de l'UNESCO de la bibliothèque scolaire, op. cit.

(9) Bernard Pochet, Favoriser l'accessibilité à la documentation scolaire,

Source : http://www.ulb.ac.be/project/learnet/coll/Methcons1-FAVORISE.html

(10) في علوم الإعلام والتوثيق، يطلق مصطلح "مرتاد" (usager ou utilisateur) على كل من يرتاد المكتبة/ خزانة الكتب. إلا أنها توسع من دائرة هذا المصطلح للتمييز بين نوعين من المرتادين: "المرتاد النشيط" utilisateur actif و"المرتاد السلبي" utilisateur passif. فالأول هو من يستفيد من خدمات المكتبة/ الخزانة، والثاني هو من لا يرتادها إطلاقا ويتحتم عليها أن تعمل من أجل استقطابه.

(11) هناك منظمات وجمعيات دولية عدة تشتغل في هذا الاتجاه ويمكن الإشارة على سبيل المثال إلى :

ISO (International Standards Organisation) ; l'UNESCO..

كما أن هناك جمعيات مهنية محترفة من قبيل: l'IFLA

(la Fédération internationale des associations de bibliothécaires et des bibliothèques)

ويمكن أن نجد داخل بعض البلدان منظمات مسؤولة عن الفهرسة وتقنين معاييرها وضوابطها كما هو الشأن بالنسبة لمنظمة AFNOR (Association Française de Normalisation) في فرنسا.

(12) يمكن الإطلاع على "الفهرس الوثائقي" Le Thésaurus لليونسكو في العنوان التالي :

http://www.ulcc.ac.uk/unesco/

(13) La recherche d'information à l'école secondaire, [L'enseignant et le bibliothécaire, partenaires de l'élève].

source : http://pages.infinit.net/formanet/cs/leveille.html

Ce document a été conçu et réalisé par un groupe de travail formé de spécialistes de la documentation des régions de Laval, des Laurentides et de Lanaudière et de la Montérégie ainsi que des chargés de dossier à la Direction régionale de Laval, des Laurentides et de Lanaudière et à la Direction des ressources didactiques du ministère de l'Éducation.